Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (9) Issue (3) March(2026)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

فن الإرصاد في الأدب العربي دراسة بلاغية

د. زينه عبدالله عارف
د.علي حميد سفاح
كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية

The Art of Observation in Arabic Literature: A Rhetorical Study

Dr. Zaina Abdullah Arif
Dr. Ali Hamid Safah
College of Education for Humanities
Department of Arabic Language

الملخص

يهدف هذا البحث إلى توضيح مفهوم الإرصاد البلاغي في التراث النقدي العربي، واستعراض تطوره المصطلحي، وبيان أقسامه (اللفظي والمعنوي)، بالإضافة إلى تحليل أثره العميق في النصوص القرآنية والشعرية، مُركزًا على قدرة هذا الفن على إثارة ذكاء المتلقي وإحكام بنية النص وتحقيق الإقناع والجمالية ،اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، حيث قام بوصف التطور التاريخي لمصطلح الإرصاد لدى النقاد القدامى (من ابن المقفع وابن قتيبة إلى ابن الأثير)، ومن ثم تحليل الشواهد الشعرية والقرآنية لبيان الكيفية التي يرصد بها صدر الكلام وعجزه.

الكلمات المفتاحية: الإرصاد ، التوشيح ، التسهيم ، التبيين ، التضاد ، رد العجز على الصدر.

Abstract

This research aims to clarify the concept of rhetorical observation in the Arab critical tradition, and to review its terminological development. includes an explanation of its divisions (verbal and conceptual), as well as an analysis of its profound impact on Qur'anic and poetic texts, focusing on this art's ability to stimulate the recipient's intelligence, strengthen the text's structure, and achieve persuasion and aesthetic appeal, adopts a descriptive approach.The analytical approach, in which he described the historical development of the term "observation" among the ancient critics (from Ibn al-Muqaffa and Ibn Qutaybah to Ibn al-Athir), and then analyzed the poetic and Qur'anic evidence to show how the beginning and end of speech are observed.**Keywords:** observation, embellishment, clarification, contrast, echoing the end with the beginning.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.وبعد:تمثل البلاغة العربية بعلومها الثلاثة عصب الإعجاز في النص القرآني وجمالية الأداء في الشعر العربي، ومن بين المحسنات البديعية التي تُظهر براعة الصنعة الشعرية والبيانية، يبرز فن الإرصاد بوصفه أداة بالغة الأهمية في إحكام النص وإثارة ذهن المتلقي ، وعلى الرغم من القيمة الجمالية والمعنوية العالية للإرصاد، الذي عُرف بأسماء متعددة كـ التوشيح والتبيين، إلا أنه لا يزال يحتاج إلى إلقاء الضوء على أثره العميق في توجيه التلقي وإثراء البرهان إذ ينطلق هذا البحث من إشكالية محورية وهي: كيف يخدم الإرصاد الوظيفة الإقناعية والجمالية في النص العربي؟ وكيف يبرهن على قدرة المتكلم على السيطرة التامة على بنية خطابه؟والهدف من هذا البحث هو بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي الدقيق للإرصاد، واستعراض تطور تسمياته لدى النقاد العرب الأوائل (كابن قتيبة وقدامة وابن الأثير)؛ لتأكيد جوهره القائم على التنبؤ الواعي والاستنتاج الحتمي ، وبيان الأثر البلاغي من خلال تسليط الضوء على أثر الإرصاد في النصوص القرآنية والشعرية، مبيناً دوره في تحقيق الإحكام وحسن الخاتمة، والجمع بين وظيفتي الإقناع والإمتاع لدى المتلقي.واعتمدت

في البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بوصف الظاهرة البلاغية (الإرصاد) وتحليل الشواهد الشعرية والقرآنية الواردة فيها؛ لبيان العلاقة الوثيقة بين المُرصِد (مقدمة الكلام) والمُرصَد (نهاية الكلام).وقد قسمت البحث على مبحثين ، تليهما خاتمة للنتائج وقائمة بالمصادر والمراجع:جعلت المبحث الأول: الإرصاد في البلاغة العربية والتعريف باللغة والاصطلاح .أما المبحث الثاني فقد جعلته لأقسام الإرصاد المعنوي واللفظي.ثم خُتم البحث بخاتمة ذكرت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها في البحث ، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.واستعملت في هذا البحث مصادر متنوعة من بلاغة ومعاجم كـ(أسرار البلاغة ، والإيضاح ، والعين ، ولسان العرب، وغيرها).وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: الإرصاد في البلاغة العربية

يهدف هذا البحث إلى توضيح ومعرفة ما هو الإرصاد في البلاغة العربية ولمعرفة قدرة ذكاء المتلقي على استنتاج النهاية بناء على المقدمات سواء كانت نثرا ام شعرا ويهدف أيضا الى توضيح اهمية الإرصاد كونه يضفي على الكلام جمالا وإيحاء لإثارة المتلقي، وجعل من المتلقي أكثر تفاعلا مع النص ويهدف أيضا الى توضيح معنى الإرصاد بلاغيا وإلقاء الضوء على أثرها البلاغي في القرآن الكريم والشعر العربي وذلك بوصفه بنى بلاغية مؤثرة في النصوص القرآنية والأدبية مما يجعل المعنى معروفا ودالا على ما سيأتي بعده، وتوضيح هذا المحسن البديعي الجميل وكيف انه يضفي نوعا من الاقناع والإمتاع على المتلقي

الإرصاد لغة واصطلاحا:

الإرصاد لغة :هو المراقبة والاعداد وقد جاء معناه عند الخليل (ت:١٧٠هـ): الرصد هم القوم الذين يرصدون كالحرس[١]والمرصد والمرصاد عند العرب: هو الطريق وذكر المرصاد في قوله تعالى چ ک ک گ گ چ [٢] ، أي: بالطريق الذي تمر منه، أو يرصد من كفر به وصد عنه بالعذاب[٣] ، وجاء أيضا في اساس البلاغة رصدته وارتصده وترصدته أي انك قعدت له على الطريق اترقبه وراصدته راقبته[٤] .

الإرصاد اصطلاحا: تعددت التسميات في مصطلح الإرصاد فمنهم من ذكره دون تسمية اذ ذكره ابن المقفع(ت:١٤٢هـ) بقوله: وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير ابيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته[٥]وأمَّا ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) فقد جعله معيارا لشعرية الشاعر بقوله: ((المطبوع من الشعراء من سمع بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشيا الغريزة))[٦] ،وأمَّا قدامه ابن جعفر(ت:٣٧٥هـ) فقد سماه التوشيح وعرفه بقوله ((هو ان يكون اول البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به حتى ان الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع اول البيت عرف آخره وبانت له قافيته))[٧] ولكن تسمية قدامه بن جعفر لم تنل اعجاب ابو هلال العسكري(ت:٣٩٥هـ) لأنه وجدها غير لائقة بهذا المحسن البديعي فأسماه التبين اذ عرفه: ((وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبىء عن مقطعه؛ وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعرا، أو عرفت رواية؛ ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه؛ وخير الشّعر ما تسابق صدوره وأعجازه، ومعانيه وألفاظه؛ فتراه سلسا فى النظام، جاريا على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر؛ كأنه سبيكة مفرغة، أو وشى منمنم، أو عقد منظم من جوهر متشاكل، متمكّن القوافي غير قلقة، وثابتة غير مرجة، ألفاظه متطابقة، وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كلّ شىء منه موضوع في موضعه، وواقع في موقعه؛ فإذا نقض بناؤه، وحلّ نظامه، وجعل نثرا؛ لم يذهب حسنه، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه؛ فيصلح نقضه لبناء مستأنف، وجوهره لنظام مستقبل))[٨] ، وأمَّا ابن رشيق (ت: ٤٥٦هـ) فقد أسماه بالتسهيم وقد ذكر أن الذي سماه تسهيما هو علي بن هارون المنجم وكذلك ذكر اسم آخر له وهو المطمع على لسان ابن وكيع[٩] ، ويعود ابن رشيق القيرواني ليعلل سبب تسميته التوشيح بالتسهيم ، بقوله: ((وما اظن هذه التسميه الا من تسهم البرود ، وهو ان ترى ترتيب الألوان فتعلم إذا اتى أحدهما ما يكون بعده وأمَّا تسميته توشيحا فمن تعط في الوشاح بعضها على بعض وجمع طرفيه ويمكن ان يكون من وشاح اللؤلؤ والخرز وله فواضل معروفه الاماكن فلعلهم شبهوا هذا به))[١٠] وذكره ابن سنان الخفاجي(ت:٤٦٦هـ) في سر الفصاحة بقوله: ((الكلام الذي يدل على بعضه او الكلام الذي يدل بعضه على بعض ويأخذ بعضه برقاب بعض وإذا انشدت صدر البيت علمت ما يأتي به عجزه))[١١] وظهر مصطلح الإرصاد عند ابن الاثير(ت:٦٣٧هـ) في كتابه المثل السائر اذ عرفه بقوله: ((وحقيقته ان يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي اعدها في نفسه فإذا انشد صدر البيت عرف ما يأتيه في قافيته هو ذلك من محمود الصنعة فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعضه))[١٢] وفي العصر الحديث فقد عرفه الدكتور احمد مطلوب بقوله: ((أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي))[١٣] ، أما احمد مصطفى المراغي فقال: ((ما يفهمها عندما عرفت الروي))[١٤].

المبحث الثاني: أقسام الإرصاد:

أولا: الإرصاد المعنوي: هو الذي يعتمد على المعاني **وتكون دلالته معنوية**[١٥]

ومن أمثلته قول الشاعر الأرجاني:

فبواحد يسطو على أحبابه وبواحد يسطو على اعدائه

فتعجبني ان عشت بعد فراقه وتحسر ان مت قبل لقائه[١٦]

البيتان متقابلان تقابلا تاما الصدر يقابل العجز والإرصاد هنا وقع في لفظ (عشت) التي لا يمكن ان يقابلها في المعنى والتضاد سوى لفظة (مت) هذا التناغم بين "عشت" و "مت" هو الذي جعل البيت متماسكًا بلاغيًا، حيث تتجه العبارة في الصدر إلى معنى، وتختم في العجز بضده، مما يزيد من قوة المعنى وجماله. (فعشت) في الصدر: يمثل حالة البقاء المؤدي إلى التعجب (الإعجاب ببقاء المحبوب)، وهذا يتطلب وجود المحبوب و(مت) في العجز: يمثل حالة الفناء المؤدي إلى التحسر (الحزن على فوات اللقاء)، وهذا يتطلب عدم وجود المحبوب ،وهذا يخدم المعنى الرئيسي للبيت، وهو التعلق الشديد الذي يجعل حياة الشاعر مرتبطة وجوداً وعدماً بالمحبوب.فالإرصاد هنا أضفى على البيت ما يُسميه البلاغيون (حسن الخاتمة) أو (الإحكام) فبدون كلمة (مت) كان سيبقى الشطر الثاني ناقصاً معنوياً، بينما (مت) بمثابة (القفل) الذي يغلق المعنى بشكل محكم ويمنع انفلاته، ويُظهر البيت وكأنه نتيجة حتمية لمقدمته.ويقول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي[١٧]

يصف المتنبي الظلام بأنه يجعله غير مرئي ومحمي من أعين الرقباء فالليل يوفر الغطاء الذي يكسو هذه الزيارة عن أنظار المراقبين وسواد الليل هو بمثابة حامي أو مدافع عن زيارة الشاعر فيشفع له ، أي: أنَّ الليل ساعده على الزيارة بعيدا عن انظار المراقبين له، وعندما قال: وأنثني ، أي: أعود من هذه الزيارة ليأتي دور بياض الصبح الذي يحتاج لمعنى مناسب له وهو الكشف والفضح والوضوح لذلك كان يحتاج لمعنى يناسب ما يريد فيقع الإرصاد هنا ما يقابل الزيارة هي العودة والانثناء وسواد الليل فيأتي في بال القارئ الصبح والستر يأتي في المقابلة الكشف والفضح هنا جاء اداة لبيان الإرصاد وعمله فالتقابل التام في البيت يجعل المتلقي يتوقع ما الذي سوف يسمعه من الشاعر فيحتاج لهذه[١٨].ويقول ابو تمام في قصيدته الشهيرة: السيف أصدق التي قالها في وصف معركة عمورية، فيقول:

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب[١٩]

اراد الشاعر في هذا البيت ان الوقائع الفعلية والتجارب الحقيقية التي يكشفها السيف في ساعة المعركة تكون اكثر صدقا وأوضح من الاخبار المكتوبة في الصحف ، والكتب لأن المنجمين قد نصحوه بعدم خوض هذه المعركة فالقصيدة قيلت في يوم فتح عموريه ومكانة السيف في هذه المعركة وحسمه الموقف كله بشكل افضل من الكلام فالسيف كان الفيصل بين الجد واللعب[٢٠]يقول: الشاعر دعبل الخزاعي

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب براسه فبكى[٢١]

يوهم الشاعر المتلقي بالطباق الواقع بين لفظتي ضحك فبكى بأنه معنى حقيقي لكن الذي يعنيه الشاعر هو المشيب بشكل كامل وهو ما يسمى بإيهام التضاد فعند سماع المتلقي للفظ : الضحك و المشيب، سوف يدرك ان قافية البيت هي بكى وان كان المعنى ايهاما للتضاد.

لكن لا يناسب المعنى سوى لفظة بكى فهو وصف دقيق لتقلبات الحياة كيف انه استعار للشباب الضحك وعندما بلغ من العمر ما بلغ قد استعار للعمر البكاء ، وقد نجح في توصيل الفكرة للمتلقي هذا التضاد يجسد الصراع النفسي العميق للشاعر: ضحك المشيب: تعبير عن ظهور الشيب (البياض) الذي يُعد علامة على تقدم السن ، بكى: تعبير عن حزن الشاعر وأسفه على انقضاء مرحلة الشباب وإقبال مرحلة الشيخوخة، هذا التناقض بين فرحة الزمن بهبوب المشيب وحزن الشاعر عليه هو جوهر المعنى[٢٢].ومن أمثلته ما جاء بقول الشاعر :

خالف هواك إذا دعاك لريبة فلرب خير في مخالفة الهوى[٢٣]

عند سماع المتلقي صدر البيت يدرك أن عجز البيت يجب أن يكون كصدره وذلك؛ لأنه ما من اجابة لرب خير إلا في مخالفه الهوى، فالسامع يستشعر الإجابة ، فلغة الإستعداد موجودة في البيت اذ يترك النفس لرغباتها فكأنك تعد نفسك لاستقبال خير ، فالإرصاد يخلق في النص الأدبي هون من الرضا ممزوجا بالتوقيع فيكون أداة رمزية عميقة للتعبير عن الافكار والمشاعر لإثراء النقص الادبي ،فالهدف إفادة الحكمة بأن السعادة الحقيقية والخير ليسا في اتباع أهواء النفس، بل في مجاهدتها ومخالفتها إذا دعت إلى الشر.ويقول الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول[٢٤]

يبدأ البيت بوصف حال الرجل المتنقل من عشق لآخر فالإرصاد يتحقق في مقابله بين مفهومين متضادين وهو الحب الاول والثاني، فهذه الفكرة التنافسية بين الحب الأول والثاني فحين قال الشاعر: نقل فؤادك فلا بد ان تكون الاجابة في عجز البيت هي ان الانسان مهما تعدد واحب أكثر من

واحدة، فالحب الاول هو الذي يبقى راسخا في قلب العاشق فلعب الإرصاد دورا بلاغيا واضحا وهو ابراز قوة العاطفة في العلاقة الاولى وتأثيرها الدائم على مشاعر الإنسان[٢٥].ومن ذلك قول البحتري[٢٦]:

أحلّت دمي من غير جرم وحرّمت بلا سبب يوم اللّقاء كلامي

فليس الذى حلّلته بمحلل وليس الذى حرّمته بحرام

في هذا البيت تكمن المفاجأة البلاغية والمنطق الشعري القوي الذي يخلقه الكلام، فالشاعر لم يقم بالإرصاد لكلمة واحدة، بل لكلمتين متضادتين هما (أحلّت و حرّمت) وهذا يجهز السامع لانتظار رد قوي، فعندما يأتي البيت الثاني بقوله: (فليس الذي حللته بمحلّل ... وليس الذي حرّمته بحرام)، يكون الوقع أقوى والشاعر هنا ينتقل من وصف الظلم إلى إعلان سلطته الروحية والشعرية في إبطال هذا الظلم فالمفاجأة المنطقية قوية تؤكد مكانته وعزة نفسه، ونلاحظ أن الإرصاد هنا يربط جزأي البيت أو البيتين ربطًا وثيقًا جدًا بحيث لا يمكن فهم قوة الشطر الثاني دون الأول، وهذا التلاحم يمنح البيت وحدة عضوية ممتازة، فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثاني أن عجزه ما قاله البحتري[٢٧].ومنه قول البحتري أيضا:

أبكيكما دمعا ولو أني على قدر الجوى أبكي بكيتكما دما[٢٨]

يظهر الإرصاد هنا في النصف الأول من البيت الذي يُجهز ذهن السامع لتوقع القافية كلمة (دَمَا)، بدأ الشاعر بـ (أَبكيكُما دَمعاً) فذكر البكاء بالدمع يشير إلى أقصى درجات الحزن التي تلي البكاء بالماء، وهي بكاء الدم، ثم يكمل الشرط بقوله:(وَلَو أَنّي عَلى قَدرِ الجَوى أَبكي) لو كان بكائي مساوياً لحرقة الحزن واللوعة التي أشعر بها ؛ تكون النتيجة المتوقعة هي الوصول إلى أقصى مراحل البكاء، وهي بَكَيتُكُما دَما لذلك؛ فإن كلمة (دَمعاً) وما تبعها من التعبير عن (الجَوى) (شدة الحزن) تُعتبر إرصاداً قوياً وتهيئة لفظية ومعنوية لختام البيت بكلمة (دَما)[٢٩].هذا النوع من الإرصاد يضيف إلى البيت جمالاً خاصاً وقوة بيانية فنلاحظ التدرج في المعنى ينتقل من حالة البكاء العادية (الدمع) إلى حالة مبالغ فيها تعكس عمق الحزن (الدم)، مما يخدم المعنى العام للبيت ويُظهر تماسك البناء اللغوي والمعنوي في البيت، حيث تكون النهاية نتيجة منطقية متوقعة للمقدمة[٣٠].

ثانيا: الإرصاد اللفظي:هو ما يعتمد على الكلمات أي ان تكون التحسينات في بنية الجملة وتركيبها وليس في معناها[٣١] .فمن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: چ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ چ[٣٢] .أي :إذا سمع المتلقي قوله: [لقضي بينهم فيما فيه] عرف من معنى الآية ان الذي يأتي بعده قوله يختلفون لان الذي تقدم من الدلالة عليه وقوله فاختلفوا فخير الكلام ما دل على بعضه بعض واحق بهذه الصفة كلام الله عز وجل يقول الله عز وجل في محكم كتابهچ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ چ [٣٣] فالموءودة تعني البنت التي تدفن حية الموءودة هي البنت التي كان اهل الجاهلية يدفنونها او يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسال الموءودة عن أي ذنب قتلت؟. وهو تهديد لقاتلها فإذا سئل المظلوم ، فما ظن الظالم ؟ وسئلت: أي طالبت بدمها[٣٤] عند تفسير الآية الكريمة نجد أن الإرصاد قد وقع في هيئة الموقوف عليه أي شخص الذي وقع عليه فعل السؤال والتقدير سئلت هي أي سئلت الموءودة فعندما سألت القتلة عن سبب قتلها وظلمها فالإرصاد هنا يضفي صفه المتكلم مما يجعلها كأنها تسأل بنفسها عن سبب قتلها ودور الإرصاد في هذه الآية يؤكد على بشاعة جريمة وأد البنات مما جعل صورة الموءودة حاضرة المشهد، وكأنها تتكلم وتطالب بحقها فكانت صيغة المتكلم تثير العواطف وتجعل المتلقي يتفاعل مع الموقف بشكل كبير، فعندما يقرأ المتلقي لفظة الموءودة يعرف مسبقا قبل ان يصل الى نهاية الآية الكريمة أن ما سيأتي بعدها وهو القتل فالفعل الذي وقع على البنت في زمن الجاهلية: هو القتل، والذي دل على الإرصاد هو لفظة الموءودة ويقول ومنه أمثلته في الشعر قول الشاعر[٣٥] :

مودّة، ذهب، أثمارها شبه وهمة جوهر، معروفها عرض

تحدث يحيى بن حمزه العلوي عن هذا الغرض بقوله :"فإنه لما ذكر الذهب جعل في مقابله الشبه، ولما ذكر الجوهر علم أن مقابله العرض، وهذا إرصاد حسن، وحكى ابن الأثير عن بعض علماء البيان أنه ينبغي لمن يتكلم في المنظوم والمنثور أن يجنب كلامه الألفاظ المصطلح عليها بين النحاة والمتكلمين وأهل الصناعات وغيرهم، وهذا فاسد لا وجه له فإن الشاعر والكاتب يخوضان في كل شيء ولا يقتصر خوضهما على فن دون فن، ولا اصطلاح دون اصطلاح، ولهذا فإنك تراهم إذا استعملوا شيئا من الكلمات المصطلح عليها في العلوم أو في الصناعات في أشعارهم ورقائقهم، وجدت له أحسن موقع، وازداد جمالها، وظهر رونقها وكمالها، فهذا ما أردنا ذكره في معانى الإرصاد"[٣٦].فالإرصاد في هذا البيت هو مثال بديع للإحكام البلاغي لأنه يأتي على شكل أزواج متقابلة في كل شطر ، والإرصاد في الشطر الأول (المودة) المرصِد (البداية): ذكر كلمة (ذَهَب) (المعدن الثمين) في بداية الشطر، والمرصَد (القافية الداخلية) كلمة (ذَهَب) ترصد وتُلزم الشاعر أن ينهي القول عنها بما يناقض قيمتها، وهو (شَبَهُ) (النحاس الرخيص الذي يشبه الذهب) ، نلاحظ أن الإرصاد هنا يخدم التناقض في القيمة، ويجعل القارئ يتوقع أن الذهب لا يمكن أن يقابله في

النهاية سوى شيء رخيص زائف ،أما الإرصاد في الشطر الثاني (الهمّة) المرصِد (البداية) ذكر كلمة (جَوْهَر) (الشيء الثابت والأصيل) في بداية الشطر، والمرصَد (القافية الرئيسية) كلمة (جَوْهَر) ترصد وتُلزم الشاعر أن ينهي القول بما يناقضها فلسفياً، وهو (عَرَضُ) (الشيء الزائل وغير الثابت) والإرصاد هنا يخدم التناقض الفلسفي (بين الجوهر والعرض) ويجعل القافية متوقعة لأهل المنطق والبلاغة .فقد وظف أبو تمام فن الإرصاد بذكاء فائق؛ ليحقق مقابلة مزدوجة (ذهب/شبه) و (جوهر/عرض)، مما جعل البيت نموذجاً في إحكام الصنعة وقوة الحجة الفلسفية.ومن ذلك ما قاله أبو تمام:

فإن يك جرم، أو أتيت بهفوة ... على خطأ منّى فعذري على عمد(٣٧)

الإرصاد اللفظي بين(خَطَأ وعَمْدِ) فقد استعمل الشاعر في صدر البيت كلمة (خَطَأ) (حالة الذنب) هذه الكلمة ترصد وتُلزِم القافية بأن تأتي بكلمة لها علاقة وثيقة بها، فجاءت كلمة (عَمْدِ) (حالة الاعتذار) فالإرصاد هنا يضمن أن القافية تكمل الفكرة البلاغية بذكاء، وهي الطباق العكسي بين الخطأ في الفعل والعمد في العذر ، والإرصاد في المعنى (جُرْم وهَفْوَة) فبدأ الشاعر بذكر كل الاحتمالات (جُرم أو هَفْوة) وهذا الإرصاد المعنوي يمهد للعجز، الذي يجب أن يكون جواباً شاملاً يغطي كلتا الحالتين، وهو ما تحقق بقوله: (فعذري على عمد)، أي أن العذر عن قصد مني يغطي الذنب الكبير والصغير، فما هذا حاله من أحسن ما يأتي في الإرصاد فإنه لما ذكر الخطأ حسن وقوع العمد بعده وكان مفهوما عند الوقوف على قوله (على خطأ منى) بلا مرية(٣٨) ،وهذا الإرصاد البديعي يرفع من قيمة الاعتذار، جاعلاً إياه فخراً وإتقاناً لا ذلاً وهرباً.ومنه أيضا ما جاء بقول الشاعر:

فإذا حاربوا أذلوا عزيزا ... وإذا سالموا أعزوا ذليلا(٣٩)

نلاحظ أن الشاعر قرر بناء البيت على المقابلة والتضاد (حرب/سلم، إذلال/إعزاز) فبمجرد أن أنهى الجزء الأول بكلمة عزيزاً، أُلزِم بلاغياً بأن ينهي القافية بكلمة تكون ضدها تماماً وتكمل التناظر والكلمة الوحيدة التي تناسب التضاد هنا وتحقق الجمالية هي كلمة (ذليلاً)فلفظ (عزيزاً) أرصد لـ (ذليلاً)، لأن التوازن البلاغي فرض ذلك فتأكيد المقابلة عبر الإرصاد جعل المقابلة حتمية وغير قابلة للكسر ، ورفع شأن الممدوح أثبت أن القوة لديه متكاملة؛ فإذلال العزيز (الخطر الأكبر) لا يقل أهمية عن إعزاز الذليل (تأكيد النفوذ) عندما يتوقع المستمع القافية والدلالة اللفظية ، ويجدها بالفعل قد جاءت بطريقة بليغة ومناسبة، فإنه يشعر بنوع من التناغم الصوتي والإشباع الجمالي(٤٠).ومنه ما جاء في قول الشاعر:

فداء لامريء سارت إليه ... بعذرة ربّها عمّي وخالي

ولو كفّي اليمين بغتك خونا ... لأفردت اليمين عن الشّمال(٤١)

الإرصاد هنا ليس بين شطري بيت واحد، بل هو إرصاد يربط قافية البيت الأول بـ القافية اللفظية والوزنية في البيت الثاني، ألا ترى أنه يعلم إذا عرفت القافية في البيت الأول أن في البيت الثاني ذكر الشمال فالبيت الأول ينتهي بقافية اللام المكسورة: خالِي، والبيت الثاني ينتهي بقافية اللام المكسورة: الشِّمالِ، هذا التماثل في الوزن والجرس يمنح القصيدة وحدة متناغمة، وهذا الإلزام بقافية محددة هو شكل من أشكال الإرصاد للوزن، وكلمة (اليمين) تُلزم الشاعر بلاغياً أن يضع في القافية (نهاية البيت) الكلمة التي هي زوجها المعنوي واللفظي المباشر وهي: (الشِّمَالِ)(٤٢)،فنلاحظ أن الإرصاد هنا جعل البيتين أشبه بجملة واحدة متصلة: البيت الأول يمهد لموضوع الولاء والتضحية وينتهي بقافية معينة، والبيت الثاني يأتي للتعبير عن أعلى درجات الوفاء (التضحية باليد اليمنى) ويستخدم الإرصاد بين اليمين و الشمال ليُحكِم البناء ويضمن أن القافية التي تخدم المعنى هي نفسها القافية التي تتناغم مع البيت الأول، وهذا التلاحم عبر الإرصاد يرفع من مستوى الصنعة الشعرية ويجعل حجة النابغة في الوفاء أكثر بلاغة وإقناعاً للملك النعمان.

الخاتمة والنتائج

١.أظهر البحث أن فن الإرصاد مر بتطور مصطلحي لافت، حيث سُمي بـ التوشيح والتبين ،والتسهيم والمطمع ، قبل أن يستقر على مصطلح الإرصاد عند ابن الأثير وهذا التعدد يدل على القيمة البلاغية العالية لهذا الفن واهتمام النقاد به عبر العصور.

٢.أكدت التعريفات الاصطلاحية على أن جوهر الإرصاد هو التنبؤ أو الاستنتاج الواعي. فالإرصاد هو أن تكون مقدمة الكلام (الصدر) دليلاً موجهاً نحو نهايته (العجز أو القافية)، مما يجعل المتلقي أكثر تفاعلاً وتوقعاً.

٣.تبين من خلال البحث أن الإرصاد يضفي على النص صفة الإحكام البلاغي ويحقق ما سماه البلاغيون حسن الخاتمة ففي مثل قول الأرجاني (عشت/مت)، أتت القافية (مت) بمثابة (القفل) الذي يغلق المعنى بشكل محكم، مانعًا انفلاته ومُظهِرًا البيت كنتيجة حتمية.

٤.يجمع الإرصاد بين وظيفتي الإقناع والإمتاع ،الإقناع يظهر في أمثلة المقابلة (مثل: حاربوا عزيزاً / سالموا ذليلاً)، حيث يجعل البيت ذا منطق متكامل ومحكم لا يمكن نقضه، مما يرفع من شأن الممدوح ، أما الإمتاع فيتحقق عبر التناغم الصوتي والمعنوي الذي يرضي ذوق المتلقي، كما في التدرج المعنوي (دمعاً/دماً) الذي ينقل المشاعر بقوة بيانية متصاعدة.

٥.تبين أن الإرصاد المعنوي هو الأغلب في الشواهد التي تناولها البحث معتمدا بذلك على الطباق والمقابلة والتضاد الحتمي بين المعاني المتعددة وهذا يؤكد أن قوة الإرصاد تكمن في بناء فكرة متكاملة لا في مجرد التلاعب بالألفاظ.

قائمة المصادر والمراجع

- أساس البلاغة : الزمخشري تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨.
- أسرار البلاغة فى علم البيان: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- أنوار الربيع : لصدر الدِّين علي بن معصوم المدني(ت١١٢٠هـ)، تَحقِيقُ: شَاكِر هادي شكر، مطبعة العرفان، النجف–العراق، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- الإيضاح في علوم البلاغة: لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ) ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الثالثة .
- البديع في نقد الشعر: أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي (ت: ٥٨٤هـ) ،تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد ، الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،(د .ط) ،(د. ت) .
- البيان والتبيين: للجاحظ : تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، دار الجيل بيروت ط٢ ، (د. ت) .
- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ،: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ديوان أبي تمام : شرح وتعليق د. شاهين عطية ، مراجعة الأب بولس الموصلي ، مكتبة النهضة – بغداد ، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧هـ.
- ديوان الأرجاني : لناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين (ت: ١٠٦٨هـ) ، تحقيق د. محمد قاسم مصطفى ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية ١٩٧٩م .
- ديوان البحتري :عبدالله بن عبدالله الجعفي (ت:٢٨٤هـ) ، تحقيق د. عبدالرحمن بدوي ، دار صادر ،بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ.
- سر الفصاحة :لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت: ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان الطبعة الأولى- ١٩٨٢م.
- شرح ديوان المتنبي للواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) ، (د .ط) ،(د. ت) .
- الشعر والشعراء :ابن قتيبة : حققه وطبعه نصفه ، ووضع حواشيه محمد مفيد قمينحه ، محمد أمين الغتاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠.
- الصناعتين : لأبي هلال العسكري :تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية – بيروت ، (د .ط) ، (د .ت) .
- صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: للقاضي حسين بن محمد المهدي ، سُجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بدار الكتاب برقم إيداع (٤٤٩) لسنة٢٠٠٩م ،راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي ، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي ،(د .ط) ،(د. ت) .
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥هـ) ، المكتبة العنصرية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- علوم البلاغة (البيان ، والمعاني، والبديع) أحمد مصطفى المراغي ،دار الكتب العلمية – لبنان بيروت ، الطبعة الثالثة – ١٩٩٣م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني: تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، الطبعة الخامسة – ٢٩٨١م.

- عيار الشعر: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (ت: ٣٢٢هـ) ،تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، مكتبة الخانجي – القاهرة،(د .ط) ،(د. ت) .
- العين : للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .
- لسان العرب : لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت ،الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لنصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ)، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر – القاهرة (د .ط) ،(د. ت) .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان بيروت ، إعادة طبع ٢٠٠٧ م .
- نقد الشعر : لقدامة بن جعفر : تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة /١٩٧٨ م.

هوامش البحث

(١) العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ٩٦/٧ .

(٢) الفجر ١٤ .

(٣) لسان العرب : لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت ،الطبعة: الثالثة ١٤١٤ هـ .

١٦٥٤/٣، مادة (رصد) .

(٤) أساس البلاغة : الزمخشري ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ ، ٣٥٦/١ مادة (رصد).

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الثانية ، (د. ت) ، ٢ /١١٦

(٦) الشعر والشعراء :ابن قتيبة ، حققه وطبعه نصفه ، ووضع حواشيه محمد مفيد قمينحه ، محمد أمين الغتاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ ، ص٢٩

(٧) نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة /١٩٧٨ م / ص ١٦٧

(٨) الصناعتين : أبو هلال العسكري ،تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية – بيروت ،٣٨٢ .

(٩) ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني: تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، الطبعة الخامسة – ٢٩٨١م ، ٣١٠/٢.

(١٠) المصدر نفسه ٣٤ .

(١١) سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى– ١٩٨٢م ، ١٥٩

(١٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر – القاهرة (د. ث) ، ٢٠٦/٣

(١٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان بيروت ، إعادة طبع ٢٠٠٧ م ، ص ٥٧.

(١٤) علوم البلاغة (البيان ، والمعاني، والبديع) أحمد مصطفى المراغي ،دار الكتب العلمية – لبنان بيروت ، الطبعة الثالثة – ١٩٩٣ ، ٣٢٤.

(١٥) ينظر: أنوار الربيع : لصدر الدِّين علي بن معصوم المدني(ت١١٢٠هـ)، تَحقِيقُ: شَاكِر هادي شكر، مطبعة العرفان، النجف–العراق، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. ٣٤٧ .

(١٦) ديوان الأرجاني : ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين (٤٦٠م – ١٠٦٨هـ– ٥٤٤– ١١٤٩م) تحقيق د. محمد قاسم مصطفى ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية ١٩٧٩م ، كتب التراث (٨٧) ، ٩٩/١.

(١٧) شرح ديوان المتنبي للواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) ، ٣١٦ .

(١٨) ينظر: المصدر نفسه ٣١٦ .

[١٩] ديوان أبي تمام : شرح وتعليق د. شاهين عطية ، مراجعة الأب بولس الموصلي ، مكتبة النهضة – بغداد ، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م ، ١٠ .

[٢٠] ينظر: البديع في نقد الشعر: أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي (ت: ٥٨٤هـ) ،تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد ، الجمهورية العربية المتحدة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٦ .

[٢١] عيار الشعر: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (ت: ٣٢٢هـ) ،تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، مكتبة الخانجي – القاهرة ،١٢٤ .

[٢٢] ينظر: نقد الشعر ٥٢ .

[٢٣] البيت ينسب لأبي العتاهية في صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: للقاضي حسين بن محمد المهدي ، سُجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بدار الكتاب برقم إيداع (٤٤٩) لسنة٢٠٠٩م ،راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي ، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي ٥٩/١ .

[٢٤] البيت لأبي تمام في التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ، الدار العربية للكتاب ،الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ، ٩٤ .

[٢٥] ينظر: أسرار البلاغة فى علم البيان: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م ،٩٤ .

[٢٦] ديوان البحتري :عبدالله بن عبدالله الجعفي (ت:٢٨٤هـ) ، تحقيق د. عبدالرحمن بدوي ، دار صادر ،بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ٢٢٢/٢، .

[٢٧] ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥هـ) ، المكتبة العنصرية بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، ١٧١/٢ .

[٢٨] ديوان البحتري ١٢٣/١ .

[٢٩] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ) ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الثالثة، ٣٢٧ .

[٣٠] ينظر: سر الفصاحة ١٦٠ .

[٣١] ينظر: أنوار الربيع ٣٤٧ .

[٣٢] يونس ١٩ .

[٣٣] التكوير ٨،٩.

[٣٤] ينظر: تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ،: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩ م، ٣٣٢/٨ .

[٣٥] ديوان أبي تمام ٤٠٠ .

[٣٦] الطراز ١٦٨/٢ .

[٣٧] ديوان أبي تمام ٢٤٢ .

[٣٨] ينظر: الطراز ١٧٢/٢ .

[٣٩] ديوان البحتري ٢٢١/٢ .

[٤٠] ينظر: أنوار الربيع ٣٤٧.

[٤١] البيتان للنابغة في الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ) ، تحقيق: مصطفى جواد ، مطبعة المجمع العلمي ١٣٧٥هـ ،٢٣٨ .

[٤٢] ينظر: المثل السائر ٣٢٩/٢ .